

أثر الترجمة الأدبية في حوار الحضارات أصوات متعددة وعالم واحد

حفناوي بعلي
قسم .اللغة العربية وآدابها -
جامعة باجي مختار - عنابة

Résumé

La traduction littéraire est introduite à travers le dialogue des civilisations « la Mondialisation ». De même pour l'économie, la politique, le commerce et l'information.

Ceci est dû au fait que la traduction traite les relations internationales linguistiques, littéraires, culturelles, les interactions culturelles entre les nations et les peuples et la cohérence entre les identités à travers les rassemblements internationaux, les congrès et les séminaires.

Les organisations internationales ont regroupé des centaines de langues à travers le monde par la traduction et réalisé la relation entre leurs cultures. Tout ceci est dû à la mondialisation et seule la mondialisation.

حوار الحضارات كما نفهمه في حقيقة الأمر، هو تطور تاريخي موضوعي باعتباره مجموعة مسارات موضوعية، تتبع عن إرادة الأفراد والأمم. هذا وينبغي استغلال هذا الوضع الجديد لمصلحة الإنسان والبشرية برمتها بالاحترام المتبادل للثقافات، والهويات المختلفة باعتبارها المقدمة الأولى لإقامة عالم يعتمد على التوازن فيما بين الخصوصيات والتجارب، يحترمها ويقدرها كتعبير عن احترامه للتراث البشري وراثته، المتمثل في تنوع روافده مع التسليم بأن تنوع الثقافات والهويات هو الضامن الأكبر للإبداع الإنساني الخلاق، وهو الذي بانتقاداته ورواه ونزوعه إلى احترام الاختلافات والتنوع، إلى تصحيح مسار الحوار في ظرفه الراهن، الذي تنعكس فيه موازين القوى السياسية الدولية. في " صراع الحضارات " وضع " هنتجتون " تصوراته لأمريكا والعالم في زمن ما بعد الحرب الباردة، حيث تصبح الثقافة مضرا للصراعات الرئيسية بين البشر، وعليه تحل ظاهرة الصدام الحضاري محل الحرب الباردة التي كانت بين معسكرين مختلفين في نظمها السياسية والاقتصادية. كما أعاد النظر في خريطة العالم، حيث الحدود الفاصلة بين دولها هي حدود الحضارة، وليس الحدود السياسية والإيديولوجية، مثلما كان الحال في الحرب الباردة، وهذه الحدود هي نفسها خطوط المعارك، ومن هنا عدد سبع حضارات رئيسية بالإضافة إلى أخرى ثامنة محتملة هي: " الغربية، الأمريكية، اللاتينية، الأرثوذكسية، السلافية،

الإسلامية ، الكنفوشيوسية ، الهندوسية ، اليابانية ، الإسلامية ، الهندوسية ، وربما الإفريقية . وبالرغم من الخلط في تحديد مفهومي الثقافة والحضارة من جهة والحضارة والدين من جهة أخرى ، التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى . وفي محاولة تفسير لما أسماه خطوط التقسيم ، نجده يعيد مفهومي الغرب والشرق إلى الأذهان .

حوار حضارات أم عنف لغوي؟

عندما نتأمل الخريطة الثقافية - اللغوية - الراهنة للعالم شماله وجنوبه ، تصادفنا ثلاث حقائق مهمة؛ تشير الحقيقة الأولى إلى اجتياح الثقافة الأمريكية للعالم المعاصر بما فيه أوروبا ، وقد أشار وزير الثقافة في الاتحاد الأوروبي لهذه الحقيقة مبكراً ، عندما أشار في بيان أصدره عام 1988 إلى خطر ، تتعرض له الثقافات الأوروبية ، في عالم توحده ثقافيا الصور والرسائل الأمريكية ، التي تزداد وتنتشر عبر الأقمار الصناعية وسائر الوسائل السمعية والبصرية المتقدمة . وفي كندا أعلنت السيدة " شيلاكويسي " وزيرة حماية التراث ونائبة رئيس الوزراء السابقة ، أنه إذا ما واصل الأمريكيون فرض سيطرتهم على الجماعة الثقافية العالمية باستعمال الوسائل ، التي تمتلكونها ، فعليهم أن يتوقعوا لجوء الآخرين إلى إجراءات انتقامية حقيقية بحقهم .

أما الحقيقة الثانية ، فهي تشير إلى التنافس بين الثقافتين العالميتين؛ الثقافة الأنجلو أمريكية والثقافة الفرنسية للسيطرة على العالم ، ففي مواجهة انتشار نمط الحياة الأمريكية ، من البرامج والمسلسلات الناطقة بالإنجليزية ، تبرز الفرنكوفونية كأداة لمقاومة نزعة الهيمنة ، التي كرستها الأنجلوفونية باعتبارها أداة التواصل الأكثر ذيوفا وانتشارا في النطاق الإعلامي . وتبرز أيضا في اعتبارها وسيلة للدفاع أمام محاولة أمركة أوروبا والعالم غير الأوروبي ، من خلال ما تبثه من برامج مرئية وأخرى مسموعة ، تستهدف الترويج لنمط الحياة الأمريكية .

ويذهب بعض علماء الاقتصاد إلى أن أسباب إعلاء شأن الثقافة الأمريكية ، باعتبارها اللغة المركزية واللسان الناطق باسم العالمية ، والمدافع عن مساراتها والمروج لأفكارها ورموزها لا يرجع إلى الاختلاف الثقافي بدليل الاحتجاج الجماعي ، الذي عبرت عنه أوروبا وعلى الأخص فرنسا ، بمناسبة مفاوضات الغات ودفاعها عما بات يعرف باسم (الاستثناء الثقافي) ، ذلك أن جميع هذه الثقافات تنتمي إلى الحضارة الغربية ، سواء في أصولها الأمريكية أو في امتداداتها الأمريكية ، ولذلك يرى هؤلاء العلماء أن المصدر الأساسي للتباين ، لا يرجع إلى اختلاف الثقافات ولكن يرجع إلى أسباب اختلاف الموقع في هرم الرأسمالية العالمية . (1)

وتشير الحقيقة الثالثة إلى أن القضايا الثقافية، أصبحت بالتدرج مجالا للنقاش والحسم في إطار المنظمة العالمية للتجارة، وليست ضمن منظمة اليونسكو، التي مثلت طوال العشرين عاما الماضية الفضاء الرئيسي للتعامل مع الثقافة والمعلومات على مستوى العالم. وقد تمخض عن ذلك ما يسمى بإعلان "ماكبرايد" عن النظام العالمي الجديد للمعلومات والاتصالات، وقد تشكل العام للثقافة العالمية على أساس التعددية الثقافية، التي تلخص فكرة "دع ألف زهرة تتفتح"، غير أن النظام العالمي الحالي تتسم ملامحه بالهيمنة والاستعلاء الثقافي، من جانب الطبقة الأمريكية من الثقافة الغربية، وبالنفي والتهميش الثقافي للثقافات الأخرى لصالح السوق العالمية، مما يعني تحويل الشعوب إلى قطيع من المستهلكين للثقافة الغربية، وعلى هذا الأساس لم تعد المفاضلة ضمن الواقع الجديد، المتسم بعولمة الاتصالات والمعلومات بين ثقافة وثقافة أخرى. ولكن بين الثقافة المهيمنة وأقسامها الفرعية، ويفسر علماء الثقافة هذا الوضع بالتأكيد، على الثقافة بوصفها منتجا اجتماعيا، قد أصبحت جزءا من العملية الاقتصادية التجارية الجديدة، أسوة بغيرها من السلع والمنتجات المادية، إذ تحررت من القيود الجمركية وأصبحت قابلة للتداول على أوسع نطاق في السوق العالمية، وتخضع لنفس الإجراءات والأحكام المفروضة على سواها من السلع المادية غير أن مجال المنافسة في تسويق هذه السلعة، أصبح محدودا للغاية وغير متاح إلا للقوى الرئيسية المسيطرة على تكنولوجيا الاتصال، صناعة المعلومات وتشكيل العقول وأنماط التفكير والسلوك، الأمر الذي يشير إلى أن التبادل الثقافي العالمي الجاري حاليا في ركاب التجارة الحرة، هو تبادل غير متكافئ يتغذى من التفاوت والخلل الرهيب في ميزان القوى الثقافية على الصعيد العالمي، بين ثقافات مسلحة بالتكنولوجيا الاتصالية والمعلوماتية، وبين ثقافات أخرى مجردة من أية حماية تكنولوجية أو تشريعية، مما يحول دون إمكانية خلق التفاعل المتوازن بين الثقافات والشعوب والمجتمعات. وهنا يبرز الوجه الحقيقي لما يسمى الهيمنة الثقافية، لا تعني في جوهرها سوى السيطرة الثقافية الغربية (الأمريكية على وجه الخصوص) على سائر الثقافات، وإن هذه السيطرة تحمل في داخلها مستويات أخرى من السيطرة، تجعل ثقافات غربية عديدة في موقع تابع لهذه الثقافة المركزية، التي يشار إليها بعبارة "الأمركة". (2)

وعند مقارنة ثقافة العالمية بالثقافات الوطنية في دول الجنوب أو سواها، نلاحظ أن هذه الثقافات تتميز بالخصوصية والانتظام داخل أطر تاريخية معينة، كما تتميز بالقدرة على أهلها بسمات ذهنية ووجدانية مشتركة، تتمثل في القيم والذاكرة الجماعية والإحساس المشترك بهوية تاريخية ومصير واحد. هذا في ما نرى أن ثقافة العالمية التي لها القدرة على أن تولد لدى الأفراد إحساسا مشتركا بهوية تاريخية أو بمصير مشترك، وينظر إليها على أنها ثقافة تحمل ذاكرة جماعية، كما أنها تتسم بنزعة إنسانية وأنها غير منقطعة عن أي ماض، وإن كانت تستغل

الماضي ليوفر لها عناصر، تتمثل في الأنماط الشعبية والوطنية؛ في الموضة والأثاث والموسيقى والفنون، التي تنتزع من سياقاتها الأصلية، و توضع في توليفات كوزموبولتانية، إذن فهي في أساسها ثقافة تاريخية.

وتعتبر في الأصل الثقافة الأمريكية نموذج لتنوع الأنساق الثقافية الفرعية، التي تتشكل منها ، باعتبارها مجتمع مهاجرين، مما حال دون ظهور هوية ثقافية أو حضارية عميقة الجذور للشعب الأمريكي .وقد استثمرت العالمية هذه السمة بكفاءة غير مسبوقة، حيث استفادت من الخصائص التي تتميز بها الثقافة الأمريكية ؛ سواء التنوع الاثنى العرقي أو المرونة وسهولة الانتشار، وتوافقها مع مفردات العصر وطبيعته، التي تميل إلى السرعة والسطحية وعدم التعمق .وهناك عامل آخر تتميز به صناعة الثقافة الأمريكية، هو تكثيف اهتمامها على الشباب داخل أمريكا، مما ساعد على سرعة انتشارها وتأثيرها على المجتمعات الأخرى.(3)

اتسع مدلول الثقافة ليشمل الجانب الوجداني في الإنسان والجانب العقلاني، بالإضافة إلى كيان الفرد في مجتمعه ومدى ترابطه مع الواقع المعيش. الثقافة أيضا هي نقطة تقاطع الذات مع الآخر دون الأخذ في الاعتبار حساسا لثنائية التأثير ولا ثنائية الأخذ والعطاء، لأنهما وجهان لعملة واحدة .من هنا نجد أن الرابطة هي ثورة في العلاقات الإنسانية، لأنها تصدر من مواجهة جذرية لفلسفتها وإعادة الترتيب لمدارج السلم القيمي الذي تقوم عليه، كما أنها تلغي صورة التفاصيل الثقافي، الذي ساد التفكير البشري ردحا من الزمن . ومما يساعد على تعميق الرابطة الثقافية أن كل الروابط بين الأمم والشعوب محكومة اليوم بالمعيار التكنولوجي، وأن سوق التكنولوجيا يقتضي في جوهره اشتراك الآخر لأنه رواج وترويج .وفي هذا المفترق تتبثق ميزة التكامل بين مشرق الوطن العربي ومغرب، لتعدد مشارب الثقافة الأجنبية في كل جانب عن الآخر .ومن هنا تبرز أهمية مراجعة الثنائية التي تخللت أدبيات الخطاب العربي، ألا وهي ثنائية المشرق والمغرب.

وتحكم المرجعيات اللغوية والثقافية الأجنبية المتنوعة؛ المتمثلة في المرجعية الأنجلوساكسونية والمرجعية الفرنسية .فالمشرق العربي يستند إجمالا إلى المورد الأنجلوساكسوني، وأما المغرب العربي فمنهله الأساس المرجعية الفرنسية ، وبحكم أن أهل المغرب متابعون لأعمال إخوانهم بالمشرق أكثر من متابعة أهل المشرق لإنتاج إخوانهم بالمغرب، يحصلون ثمار الموردين تحصيلًا مباشرًا أو غير مباشر ، فتتنوع لديهم المناهل الثقافية، وتشكل مصدرا هاما للدخول إلى " العولمة " اللغوية والثقافية، من خلال الخطاب الثقافي الذي أنتجته الثقافة العربية حول علاقة الثقافة عموما بالعولمة المقتحمة لها عبر اللغات ومترجماتها إلى العربية، لأن الوعي بخطاب العولمة والتحالف معها، سيجعلنا قادرين على

استيعاب " أدبيات " العولمة. وتعتبر اللغة العربية اليوم بلا شك هدفا للكونية الثقافية القادمة بقوة .

وبالنسبة لبيدو مشهد العالمية في وجهها الأنجلو أمريكي، كفعل عنف ثقافي وتكثيف إعلامي شرش، وهجمة قوية على الثقافة الوطنية والقومية. فإذا انتقلنا من العنف الثقافي بين طبقات المجتمع إلى العنف الثقافي بين مجتمعات القرية العالمية، يمكننا أن نلخص المشهد الإعلامي والثقافي في هذا، المتمثل في ازدياد عجز الدولة - الأمة الحديثة - في مجتمعاتنا العربية عن مواجهة مهامها الثقافية والسياسية، التي لم تتمكن من إنجازها في المرحلة السابقة. فمن نتائج العولمة الراهنة تعرض الدولة الحديثة للنقد، وهو ما يسمى بالدولة الرخوة، حيث نلمس ميل الفئات الحاكمة إلى الفئات الملتفة حولها إلى الفساد، وتجاهل القانون وحقوق الإنسان ، وتغليب مصالحها الخاصة على المصالح العامة ، وارتباطها المصلحي برجال الأعمال والخبراء ورجال البنوك والإدارة.

وفي وضعية تردي صناعاتنا الثقافية ، تغزو السماء فضاء لا حول ولا قوة لنا فيه، يرتفع فيه عدد هائل من الأقمار الصناعية، التي تبث قنواتنا في فضاءها الإعلامي السمعي والبصري، وتسيطر عليها مراكز القرار في عدد كبير من الدول الغربية، وتأتي على رأسها فرنسا وأمريكا. أما القنوات الفضائية العربية الوطنية والتابعة - التي تبث من المواقع المحلية أو من الخارج - فهي تبدو كأطر مفرغة بدرجات متفاوتة من المضمون، ذلك أن التزايد الهائل في هذه القنوات الإعلامية، أدى إلى انحدار مستوى الأداء الإعلامي ، وكان أوسع من أن تتم تغطيته بمنتجات الصناعات الثقافية العربية في أزمتها الراهنة، فأصبحت هذه القنوات أوعية عربية إضافية ، لتسويق الصناعات الثقافية الغربية. بل وميدانا للحروب الثقافية بين الأفلام والمسلسلات والبرامج الأوروبية واليابانية والأمريكية، وما تحمله هذه الأخيرة من تغريب وأمركة .

إن هذه الحرب الصامتة واحدة من إرهابات إعلان حرب عالمية - تجارية وثقافية ثالثة، ربما تتطلب المبادرة بالمطالبة بإنشاء مجلس أمن ثقافي عالمي، للحيلولة دون الاستمرار في عمليات الإبادة السريعة لمئات اللغات والثقافات، التي انقرضت في المنتصف الثاني من القرن العشرين، ومنع تحويل ما تبقى إلى أروقة المتاحف واسطوانات الفلكلور العالمي. وللحفاظ على التراث الثقافي، والدفاع عن الإبداع الثقافي لدى الجماعات والمجتمعات، ولتأكيد تعدد الثقافات والحوار المتكافئ بين الحضارات والتحكيم العادل بينها . ولا سبيل للخلاص في المستقبل إلا من خلال إعادة الاعتبار للدولة المركزية - الوطنية والقومية - التي ترفع القوى الحية ولا تبطش بها، وتكفل متابعة السياسات الثقافية والتعليمية وتطبيقها بصفة جدية .

الترجمة في المحافل الدولية - عالم واحد وأصوات متعددة -

الدولية أو - العالمية - مفهوم قديم، تعددت صورته ودلالاته في العديد من الثقافات وعبر العصور. ومن تلك الدلالات ما استمر مؤثرا في المفهوم أو المفاهيم المعاصرة، ومن هنا بدا من المفيد أن نبدا بلمحة سريعة عن بعض الدلالات القديمة. ففي فن الشعر لأرسطو أشار إلى مفهوم العالمية بوصفه مرادفا للعام يقابل الخاص، المترجم، ورأى تلك العالمية من خصائص الشعر في مقابل التاريخ، بمعنى أن العالمي هو تصوير الشعر للإنسان كما يمكن أن يكون أو كما لابد أن يكون، لا كما هو كائن بالفعل: "بالعالمي أقصد الكيفية التي يتحدث أو يعمل بها إنسان من فئة ما أحيانا حسب قانون الاحتمال أو الضرورة؛ وهذه هي العالمية التي يسعى إليها الشعر من خلال الأسماء التي يمنحها للأشخاص وترجمتهم". بمعنى أن العالمية تشير إلى الثابت أو الجوهر الذي لا يتغير، والذي يكون بالتالي عالميا. وفي القرن التاسع عشر انطلق الألماني "جوتة" من ذلك الترادف بين العالمي والجوهري فقال إن تناول الشعر لموضوع من موضوعات الواقع، يقتضي نقل ذلك الموضوع من الخاص إلى العام أو العالمي عبر الترجمة، أي أن طبيعة الشعر تقتضي هذه العالمية للوصول إلى جوهر الأشياء أو بعدها الكوني. غير أن غوتة نفسه مضى إلى مفهوم العالمية نفسه ليوظفه لا بالمعنى الجوهري المشار إليه هنا، وإنما بمعنى جغرافي ثقافي، يشير إلى دول أوروبا، وكان هذا التحديد الجغرافي الثقافي أساسا في مفهوم الأدب العالمي الذي توصل إليه.

في العصر الحاضر يشير مفهوم العالمية بالمعنيين الجوهري والجغرافي الثقافي، إما منفصلين أو متحدتين. فالعالمية هي حالة من الانتشار عبر الترجمة والأهمية التي يكتسبها الأدب، والنتاج الثقافي بشكل عام، حين يخرج عن حدود الإقليمية أو الوطنية المحلية، ويصبح مقروءا في مناطق ولغات أخرى من العالم. لكن العالمية أيضا "قيمة" جوهرية في الأدب تحددها معايير معينة، لا يخلو تعيينها أحيانا من الأيديولوجيا. فالأدب نتاج لغوي يحقق انتشاره وقيمه العالمية من اللغة التي أنشئ أو كتب بها، أو اللغة التي تمكن من دخولها عبر "الترجمة".

لقد اتضح أن العالمية كما توظف في كثير من الأماكن، وكما يفهمها كثير من الناس، تشترط الدخول في نطاق لغات معينة، هي في الوقت الحاضر اللغات الأوروبية، خاصة الإنجليزية، فالإنجليزية تحقق انتشارا كبيرا، لكنه انتشار مرتبط بقيمة ثقافية أو حضارية معينة، تكسب الأدب ما لا يكتسبه عبر لغة أخرى، فقد تفوق في انتشارها الإنجليزية أو الفرنسية. فاللغة الصينية مثلا، أكثر اللغات انتشارا في العالم بحسب عدد متحدثيها، لكن انتشار أدب ما بواسطتها، سواء كان صينيا أو مترجما إلى الصينية، لا يعني في الاستعمال المتداول لمفهوم العالمية تحول ذلك الأدب إلى أدب عالمي. وكذلك هو الحال مع لغة كاللغة العربية، يعرفها

مئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم. فوصول الأدب عبر تلك اللغة إلى ذلك العدد من البشر لا يتضمن الوصول إلى العالمية ومن هنا ظلت اللغتان الأوروبيتان الفرنسية والإنجليزية، على وجه التحديد، هما الجسران الرئيسيان إلى العالمية، حسب المفهوم السائد. (4)

سواء كانت العالمية وفاقا أم صراعا فلغة - في كلتا الحالتين - شأن خطير، فإن " وفاقا " فاللغة ذات شأن جليل في حوار الثقافات، حيث من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علم اللغة مركزا أساسيا لعولمة الثقافة، فهؤلاء العولميون لا يقرون بالخصوصية الثقافية للأمم والشعوب، ويقفون بشدة ضد النسبية الثقافية والنسبية اللغوية بالتالي وهم بلا شك سيجدون ضالتهم في التنظير اللغوي الحديث، حيث تتدرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة. لقد استوعبت هذه النظرية القواسم المشتركة بين اللغات، وكذلك مواضع اختلافها وتباينها. علاوة على ذلك فقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهني للغة، الذي يفترض كونها غريزة إنسانية، يشترك فيها البشر كافة.

أما إذا كانت العولمة صراعا، تفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة، إن معنى ذلك هو تهميش اللغات والثقافات القومية واحتوائها واستيعابها اقتصاديا وثقافيا. ويترتب على هذا فإنها ستحتوي الترجمة بدورها، وستصبح تتجه رأسيا من اللغة المهيمنة إلى بقية اللغات الأخرى. (5) صاحب انتشار ظاهرة العولمة تنامي نزعة التكتل الإقليمي، ويسود الساحة السياسية العالمية - حاليا - نشاط متزايد لإحياء التحالفات اللغوية مثل " الأنجلوفونية " و " الفرنكوفونية " و " الأسبانوفونية ".

واللغة في النهاية ذات أهمية بوصفها عنصر تكلفة في الميزانيات العامة فيما يتعلق بالاتصال في المنظمات الدولية، فهناك ضوابط مختلفة للاتصال في هذه الهيئات، فمنظمة الأمم المتحدة فيها ست لغات رسمية؛ هي العربية والصينية والإنجليزية والفرنسية والروسية والإسبانية، منها لغتان تستعملان لغتي عمل. والقواعد الإجرائية للأمم المتحدة، تقرر أن الأحاديث بإحدى لغتي العمل تترجم إلى الأخرى. وأن الأحاديث بأي لغة من اللغات الرسمية الأخرى تترجم إلى لغة العمل كليهما. والخدمة اللغوية التي تقدم الترجمة الفورية والترجمة التحريرية التالية، وكذلك ترجمة الوثائق الرسمية تمون من خارج ميزانية الأمم المتحدة، التي يتحملها الأعضاء بنظام حصص نسبية، وهي الأمم المتحدة تستخدم هيئة دائمة من 120 مترجما، كما تستخدم على أساس منتظم عددا كبيرا من مترجمي المؤتمرات غير الدائمين تدفع لهم أجورهم باليوم، والدول التي تطلب وثائق جلسات الأمم المتحدة بلغات غير اللغات الرسمية الست عليها أن تدفع مقابل الترجمة من خارج حصتها في الميزانية. وتعدد اللغات هذا يجبر الجماعة الأوروبية على أن

تضمن لمؤسساتها المختلفة تنظيماً للمؤتمرات وخدمات ترجمة فريدة من نوعها. فكل الوثائق تنشر بكل اللغات الرسمية التسع. (6)

أما منظمة اليونسكو بتنفيذ بانتظام برنامجاً يرمي إلى ترجمة المؤلفات الأدبية المكتوبة بلغات قليلة الانتشار إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية بصورة خاصة. ويتم اختيار هذه المؤلفات بناء على توصيات الدول الأعضاء واقتراحها ومشاورة لجنة من الخبراء، يسميهم المجلس الدولي للفلسفة والعلوم الإنسانية بالنسبة للمؤلفات الكلاسيكية، ومشاورة الاتحاد الدولي לנוادي القلم بالنسبة للمؤلفات التي كتبها معاصرون، وترعى اليونسكو بعض الحالات ترجمات إلى اللغتين المذكورتين.

ويتم نشر هذه الترجمات اعتماداً على مخصصات اليونسكو لهذا الغرض، ومساهمات الدول المعنية، مثال ذلك أن المجلس اللبناني لترجمة الروائع، ينهض بنجاح ببرنامج ترجمات من اللغة العربية إلى اللغات الأجنبية، ومن هذه اللغات إلى اللغة العربية على أساس من التعاون الوثيق مع منظمة اليونسكو. وبلغ ما ترجم من العربية إلى الفرنسية 30 كتاباً وإلى الإنجليزية 20 كتاباً، وإلى كل من الألمانية والإسبانية ثلاثة كتب، ومن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية 30 كتاباً.

وتنفذ منظمة اليونسكو برامج أخرى تحت عناوين مختلفة منها: المساهمة في نشاطات الدول الأعضاء، الشعراء في العالم، مداخل إلى الأدب الشرقي، وبرامج ترجمة كتب حول الاتجاهات الجديدة في تدريس العلوم.

لكي تضطلع اليونسكو بوظيفتها كمندى للحوار والتفاعل الخصب بين الثقافات والحضارات المختلفة، وتسهم في إيجاد مناخ أفضل للتفاهم الدولي، قامت بجهود متعددة ومتنوعة على أكثر من صعيد، وفي أكثر من اتجاه وبالذات في مجال الترجمة. فساهمت في التعريف بالثقافات والحضارات المختلفة، ولإبراز التفاعلات والتأثيرات المتبادلة بينها، بما يعمق الإيمان والشعور بوحدة الإنسان والمصير المشترك للبشر. ولليونسكو برامج متعددة في هذا الإطار، من بينها البرنامج الخاص بترجمة الروائع الأدبية، وإحياء ذكرى كبار الفلاسفة أو العلماء أو الأدباء، الذين ينتمون لمختلف الحضارات، والبرامج المتعلقة بترجمة الفلسفة. (7)

تتولى بعض مؤسسات الترجمة والنشر الأجنبية، نقل كتب إلى اللغة العربية ونشرها، فقد كانت مؤسسة "فرانكلين" تتولى ترجمة مجموعات من المؤلفات الأمريكية وتطبعها في بعض البلدان العربية، وتقوم دار نشر ليديبرد ودار نشر لونغمانز البريطانيتين بالتعاون مع مكتبة لبنان في بيروت، بترجمة سلاسل ليديبرد في مختلف الموضوعات لسائر الأعمار، وخاصة من مرحلة رياض الأطفال إلى نهاية المرحلة المتوسطة.

وهناك مؤسسات ومراكز إعلام أجنبية، تقوم بترجمة كتب ودراسات خارج البلدان العربية، مثل مؤسسة الترجمة والنشر السوفياتية. (8)

الترجمة وحوار الحضارات

لقد كرس الغرب دلالة العالمية بوصفها لصيقة بما يصدر عنه أو يصل به من أدب مترجما. ففي الثقافة الغربية يشيع استخدام "أدب عالمي" للإشارة إلى الأدب أو الآداب الغربية، سواء وردت تلك الإشارة في النقد الأدبي أو في عناوين كثير من المختارات الأدبية. فنقرأ مثلا "روائع العالم"، أو مختارات من الأدب العالمي"، أو من المسرح العالمي". الخ. ثم نتبين أن "العالمية" هنا تشير إلى الغرب "تحديدا. ففي مقدمة المختارات التي نشرتها دار نورتون الأمريكية عام 1956 بعنوان روائع العالم تؤكد العبارة الأولى، ودون اعتبار للمفارقة التي تتبني عليها العبارة "إن روائع العالم مختارات من الأدب الغربي" - روائع العالم، ص : 95. وبعد إيضاح أن الأدب الغربي هنا يشمل أدب العبرانيين القدماء، بما في ذلك الكتاب المقدس المترجم بعهديه، نزولا إلى اليونانيين ثم الأدب الأوروبي الوسيط وما تلاه حتى العصر الحديث، تشير المقدمة إلى أنها استتشت "آداب الشرق الأقصى" لأسباب تتعلق بالحاجة إلى تعريف الدارسين الأمريكيين "بتراثهم الغربي" على نحو يبرز تجانس ذلك التراث دونما امتزاج بتراث مغاير لشعوب أخرى. وما يلفت النظر في الاستثناء بين أشياء أخرى، هو اقتصاره على الشرق الأقصى. كان ما ينقص العالمية هنا، أو المعتمد العالمي، ليس إلا غياب الشرق الأقصى، وأن العالمية يمكن ادعاؤها بغياب آداب أخرى كالإفريقية والآسيوية، سواء كان ذلك أدبا فارسيا أم هنديا أم عربيا.

هذه النظرة المتحيزة للعالمية تأصلت في أوروبا، مع مجيء الدراسات المقارنة المعروفة بالأدب المقارن، المفترض أنها جاءت لتخرج الدراسات الأدبية من عزلة الأدب الوطني الواحد عبر الترجمة، وتفتح الأفق على الآداب الأخرى. فقد حرصت هذه الدراسات نفسها منذ البدء بالآداب الأوروبية، على أساس أنها مقارنة بين أنداد أو تراثات متساوية، لا بين آداب وتراثات متفاوتة القيمة ومتغايرة، بمعنى أن هذه هي آداب العالم الجديرة بالدراسة. تقول الباحثة الأمريكية سوزان باسنيت (ص 19) في تعليقها على علاقة الدارسين الأوروبيين بالبلاد المستعمرة "إن المقارنين الأوروبيين ظلوا طوال القرن التاسع عشر، يصرون على أن المقارنة تحدث على محور أفقي، أي بين متساوين. وكانت إحدى نتائج ذلك أن دارسي الأدب المقارن كانوا أميل إلى دراسة الكتاب الأوروبيين فقط" على أساس أن الكتاب غير الأوروبيين غير متساوين لنظرائهم في أوروبا، وبالتالي غير مؤهلين للمقارنة. إلى جانب تلك الإشارات المتحيزة، نجد في الثقافة الغربية المعاصرة ما يشير إلى بعض التحول عن ذلك الانغلاق في النظرة إلى العالم، فقد بدأت تظهر مختارات أدبية مترجمة، تحمل نظرة تتسع لأرجاء العالم المختلفة.

من ذلك ما نشرته دار هاربر وكولنز الشهيرة في نيويورك تحت عنوان " مختارات عالمية " عام 1994 ، تضمنت مختارات من مختلف مناطق العالم . كما أن من ذلك مختارات من الأدب العالمي المكتوب بالإنجليزية، نشرت في كندا عام 1995 . لكن من الصعب التنبؤ بما إذا كانت المختارات قادرة على اقتلاع النظرة المتحيزة أم لا . (9)

هكذا تنامت الدراسات الترجمة ، أو الدراسات المتصلة بالترجمة على مدى العقدين الماضيين ، متفرعة من الأدب المقارن ومكتسبة في تلك الأثناء قدرتها من الاستقلال جعل بعض العاملين فيها ينادون بالانفصال التام بينها لاختلاف الحقلين من ناحية ، ولما يرونه من تضال في أهمية الأدب المقارن من ناحية أخرى .

لقد ظلت الترجمة على مدى القرون نشاطا متصلا ومعترفا بأهميته ، لكنه يعامل معاملة دونية كنشاط ثانوي أو تابع لأنشطة ثقافية أكثر أهمية منه . وقد نظر المترجمون إلى أنفسهم على هذا النحو ، كما نظر إليهم الدارسون في التخصصات الأخرى . تجعل المترجم تابعا أو ناقلا ومكررا ، أو كما يقول المثل الإيطالي المشهور خائنا . بينما توصف الترجمة بأنها إعادة صياغة وتقليد ، وفي كثير من الأحيان تشويه للأصل . وقد تأصلت هذه النظرة في الأدب المقارن ، خاصة ما كان ثنائيا ، أي قائما على مقارنة أدبين فقط ، فاشترط أن يكون المترجم متقنا للغتين المقارنتين دون اعتماد على الترجمة . أما في كتب الأدب المقارن فالعادة أن يفرد للترجمة فصل واحد ، ضمن فصول أخرى حول أبواب المقارنة . ولحسن الحظ أن اتحاد المترجمين العالمي ، يصدر منذ بضع سنين بالتعاون مع اليونسكو " بابل " المجلة العالمية للترجمة ، ويمكن أن تعطي هذه المجلة للمترجمين المكانة التي يستحقونها في القرن الواحد والعشرين . (10)

لقد أصبح اليوم مستحيلا معرفة كل الآداب الأوروبية في لغاتها الأصلية ، فينبغي معرفة على الأقل عشرة أو خمسة عشرة لغة . يوجد اختصاصيون كثيرون في الأدب لا يعرفون حقيقة إلا الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية ، واختصاصيون في اللغات الحية أو الأدب المقارن يعرفون عموما لغة واحدة ، وأحيانا لغتين أجنبيتين بالمعنى التام للمصطلح . إذن أغلب الاختصاصيين وأكثر منهم القراء بالضرورة لهم اتصال بالأعمال التي تبلغ الشهرة الأوروبية أو العالمية - العولمة - عن طريق الترجمات فقط .

ما هي بالضبط طبيعة دور الأعمال المترجمة في إعطاء نظرة عالمية للأدب ، أو عولمته ؟ ينبغي الإلحاح على أن الأدب يستمر رغم منافسيه : المذيع والتلفزة والسينما ... الخ في تأثيره على القراء كوصف لثقافة كاملة وعميقة غالبا . وهذا صحيح بالنسبة للرواية التي تأتي بصورة واسعة على رأس الأجناس الأدبية المترجمة . وينبغي الاعتراف بأن الأدب مؤثر ، شأنه في ذلك شأن الثقافة ، وسيظل

معتبراً غالباً كأنه الوحيد ودائماً أحسن وصف للأجناس البشرية، لثقافة بلد ما بمعنى الكلمة ؛ أي تقريباً كل الصور والأفكار الأكثر تأصيلاً وواقعية المعروفة لدينا عن الفرنسيين والإنجليز والروس والألمان مثلاً، فإذا اختبرناها جيداً، فإننا نكتشف أنها أنت أو كانت أساساً مؤكدة عن طريق الأعمال المترجمة. بحيث أن وسائل التعبير العامة الأخرى . ما هي إلا عناصر مكملية لهذه النظرة، بدونها تبقى بالنسبة لنا متباينة وملموسة بصفاتها سطحية ، وقابلة للنقاش وغير موجودة في غالب الأحيان وقابلة جداً للتغيير . إذا كانت هناك مشاكل مطروحة من قبل هذا الدور للترجمات في تكوين نظرة عالمية للثقافة، فإنها مشاكل كلاسيكية معروفة جداً . (11)

بالمقابل فإن عملية الترجمة نفسها، هي التي تطرح مشاكل ثقافية حقيقية ، إذ اعتبرناها ذات علاقة مع وعي العلاقات المتبادلة بين الآداب، وهي مشاكل خاصة بمهارة الأدب المقارن بصورة تقليدية . وقد كانت دائماً دقيقة جداً : على الأقل نجد الأدب المقارن من بين العلوم الإنسانية، الذي أعد كرسياً في Collège de France ابتداء من 1833 مع Fauriel، وقد وجدنا دون شك حتى السنوات الأخيرة في مجلة littérature comparée وفي بيبليوغرافيا الأدب المقارن التوثيق الصحيح حول الترجمة في وظائفها، كوسيلة اتصال بين الآداب والثقافات، ولكن الترجمة في الأدب المقارن تقريباً دائماً مقبولة كفرضية في حد ذاتها ، لا تطرح إلا مشاكل تاريخية أو أدبية أو فنية . (12)

الترجمة العربية في خضم حوار الحضارات

تشيع في الأدبيات العربية المعاصرة رؤية تؤكد أن العالمية ميزة إبداعية رفيعة تتبع من المحلية عبر الترجمة ، أي ارتباط الكاتب بالمكان والثقافة التي ينبع منها، والعالمية بهذا المفهوم قيمة جوهرية ، يرتفع الأدب بتحقيقها وينتشر في العالم أجمع عبر اللغات المترجم إليها .

إلى جانب هذا الفهم للعالمية ، نجد في الثقافة العربية المعاصرة فهماً آخر، لا يكاد يختلف عن الفهم الغربي، من حيث هو يرى تلك العالمية وقد تحدت بإطار غربي أيضاً . فالأدب العالمي في العالم العربي هو بالدرجة الأولى الأدب الغربي المترجم، والأديب العالمي هو غالباً الأديب الذي اعترف به الغرب فترجم له . وينسحب ذلك على المذاهب النقدية والأدبية، فشرط العالمية مرتبط بأصلها الغربي . وإذا كان في انتشار اللغات الأوروبية وثقافتها ما يبدو مبرراً بذلك ، فإن حقيقة الأمر تقول إن ثمة مبررات أخرى مرتبطة بقيم غربية معينة ، تدعم الاعتقاد بعالمية الغرب، منها قيم التقدم والحرية وما إلى ذلك، مما يؤكد المركزية الغربية

ويزيد من هيمنتها على الثقافات الأخرى. فنجد نتيجة لذلك من يرى أن المذاهب الأدبية والنقدية الغربية مذاهب عالمية وصالحة بالتالي للبشر في كل مكان .
ومن الأمثلة البارزة استعمال المفهوم لدى غنيمي هلال - الذي يعد رائدا للدراسات المقارنة بمفهومها الحديث - والذي أورد تعريفا لهذا المفهوم، لعله الأول في النقد العربي الحديث. ففي فصل حول " عالمية الأدب وعواملها " من كتابه " الأدب المقارن "، يؤكد المؤلف أهمية الصدور في المقارنة عن فهم عميق للأدب الوطني - أي العربي هنا - تراثه وحاضره ، ثم يشير إلى أن العالمية تعني الانفتاح على اللغات والآداب الأخرى :
"عالمية الأدب معناها خروجه من نطاق اللغة التي كتب بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى" . (13)

ومن الطبيعي أن تكون المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي الهيئة العليا العربية التي تعني بشئون الثقافة العربية بمختلف وجوها على مستوى قومي، الجهة المؤهلة للعناية بحركة الترجمة والاهتمام بقضاياها والعمل لها على صعيد التنسيق والتخطيط .

وبالفعل فقد أعطت المنظمة العربية منذ نشأتها بعدا جديدا - عولمة - لقضية الترجمة، تجاوز السعي لنقل بعض الروائع الفكرية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، إلى الاهتمام بموضوع الترجمة ذاتها بوصفها نشاطا ثقافيا عالميا، يحتاج إلى عناية ورعاية ، وإلى تنسيق فعالياته وتخطيط نشاطاته ، بغية الوصول بعد ذلك إلى وضع خطة قومية للترجمة، ترسم الخطوط الرئيسية لحركة الترجمة لجعلها حركة فاعلة، إيجابية بناءة تغني الثقافة العربية المعاصرة. وقد تمثل اهتمام المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجهود ومساع كثيرة، تشير إلى أهمها :
- دعت المنظمة إلى عقد حلقة الترجمة في الوطن العربي في أكثر لقاء عربي ، ونوقشت قضية الترجمة في العديد من المؤتمرات ، ووضع برنامج عربي في نطاق المنظمة لترجمة أبرز الكتب الأجنبية في مختلف المعارف والعلوم الحديثة، عن اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، فيكون ذلك حجر الزاوية في تعريب التعليم في مختلف مراحل ، وتشجيع التأليف باللغة العربية. (14)
تفرض علينا ثقافة المعلومات توطيد العلاقة بين اللغة العربية واللغات العالمية وذلك من خلال :

- الاهتمام الشديد بأمور الترجمة. ونظرا إلى ندرة المترجمين، والتضخم الهائل في حركة الإنتاج العلمي والفكري، فلا بد من اللجوء إلى الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية إلى العربية، دون إغفال الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية، حتى نضمن نشر ثقافتنا العربية: إسلاميا وعربيا.

خمسا وثلاثين مرة .ووردزروث، وقد ترجم أربعاً وخمسين مرة .كما أن مرثية توماس غراي الشهيرة، ترجمت عشر مرات على يد كثيرين منهم محمد مندور، ومحمد الهمشري ، ونازك الملائكة وآخرون. والحال كذلك بالنسبة للرواية النثرية ، فما أكثر رواج السير ولتر سكوت، وديكنز ، وتوماس هاردي، وسومسرت موم، وإرنست همنجواي، ووليم فوكنر، وشتاينبك، وجيمس جويس .وهيرمان ميلفيل، وكبار الروائيين الروس، تولستوي، وغوركي، وشولوخوف، وغوغول، ودستوفسكي، وكبار الروائيين الفرنسيين؛ بلزاك، وهوجو، وفلوبير، ودوما الأب، وأنتول دو فرانس وفيركور، ومارلو، وسانت اكسوبري .ثم جاءت رواية أمريكا اللاتينية مع غابرييل غارسيا ماركيز، ورائعته "مائة عام من العزلة" . (16)

والواقع أننا لا نبالغ إذا قلنا أن " الترجمة " بدورها ، دخلت العولمة شأنها في ذلك شأن الاقتصاد والسياسة والتجارة والإعلام .حسب ما آلت إليه شتى المعالجات الترجمة لمشكلة العلاقات الدولية اللغوية والأدبية والثقافية، والتداخل الحضاري بين الشعوب والأمم وتعايش الهويات، عبر المحافل الدولية وانتهاء بالمؤتمرات والندوات والهيئات الدولية، التي جمعت بين مئات الألسن من مختلف أقطار المعمورة بلحمة"الترجمة " وحققت التواصل فيما بين ثقافاتهما، كل ذلك بفضل الترجمة والترجمة فقط .تلك هي عولمة أخرى لا محالة تحققت.

الهوامش والمصادر والمراجع

- 1 - عواطف عبدالرحمن : تأملات في ثقافة العنف العولمي، أسبوعية أخبار الأدب ، القاهرة، العدد : 434 ، نوفمبر - 2001 .
- 2 - عواطف عبد الرحمن : المرجع السابق، ص : 32
- 3 - المرجع السابق، ص : 33
- 4 - ميجان الرويلي، وسعد البازغي : دليل الناقد ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء بيروت ، ط2 - 200 ، ص : 115 ، 116
- 5 - نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، عدد 265، يناير 2001 ، ص : 232
- 6 - فلوريان كولماس : اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة، عدد 263 ، نوفمبر 2000 ص : 151
- 7 - حسن نافعة : العرب واليونسكو، عالم المعرفة الكويت، عدد 135، مارس 1989، ص : 266

- التوسع في الدراسات اللغوية والترجمة المقارنة والتقابلية، خاصة أن اللغة العربية تنتم بخاصية التوسط والتوازن بين اللغات العالمية ، ويمكن الاستعانة في ذلك بالدراسات العديدة المصاحبة لظاهرة العولمة، بخصوص المشهد اللغوي العالمي ، ولا يخفى على أحد ما نعانيه من قصور شديد في الدراسات المقارنة والتقابلية في معظم مجالاتنا الثقافية.

وهناك من تأخذه العزة بالإثم ؛ رافضا إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة ، التي تدرج في إطارها جميع اللغات الإنسانية حديثها وقديمها ، وهو التوجه العلمي الذي استقر منذ نصف قرن تقريبا .حجتهم في ذلك أن العربية هي لغة القرآن ، ولا أن تنفرد بنظرية خاصة بها وقد نسي هؤلاء في غيهم هذا ، ما نشيد به من عالمية القرآن وعالمية لغته بالتالي، وهو ما يفرض أن تكون هذه اللغة من أوليات اللغات التي تنضم إلى حظيرة العموم اللغوي العالمي. (15)

وتعد الترجمات التي حفل بها الأدب العربي المعاصر عن الروائع العالمية مظهرا من مظاهر العولمة. وتجسدت مشاريع الترجمة في هيئات ومجالس ؛ مثل المجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ولجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، والمؤسسة العربية للترجمة ببيروت.

عرفت الثقافة العربية ومنذ النصف الثاني من الخمسينات من القرن العشرين اهتماما يقترب الشغف بترجمات الفلسفة الوجودية في تجلياتها المختلفة، وأتيح للقارئ العربي أن يرى إلى سارتر ؛ فيلسوفا وروائيا ومسرحيا عالميا، وأن يرى أيضا البير كامو وسيمون دي بوفوار، وصولا إلى كاتب إنجليزي تحول إلى اسم كبير في العالم العربي هو " كولن ولسون ". ولم يقتصر الأمر على الترجمة، فتجاوزها إلى الاحتفاء والاحتفال.

لم يكن المشروع " القومي العربي الوجودي " يختلف في دلالاته عن مشروع آخر ، رافقه زمنيا تقريبا ، هو مشروع مجلة " شعر " ومركزها بيروت، ومع هذه المجلة قدمت المشروع الشعري الأكثر جذرية وتجديدا في الشعر العربي المعاصر، فإن ما جاءت به يختلف عن نظيرها القومي - السارتر - فهذه المجلة التي ترجمت باوند، وإليوت، وأراجون وبريفر، ولوركا، ورينيه شار، وروبرت فروست ، وولت وايمز .ربطت بين الحداثة - العالمية - والأصالة - التراث القومي.

في الخمسينات والستينات ، وفي حدود الترجمة التقى القومي بالوجودي " سارتر العربي " وبالعالمي " إليوت العربي ". وبالرومانسي الحالم والاشتراكي الثوري ، وأضحى العالم العربي داخل " عوالم " أو " تعولم ". وكانت الأولوية بالنسبة للمترجم العربي من الأدباء العالميين هم : روبرت فروست الشاعر الأمريكي، وقد ترجم خمسا وستين مرة .ثم اللورد بيرون ، وقد ترجم إحدى وأربعين مرة .و. ت. س، إليوت، وقد ترجم سبعا وثلاثون مرة .وييتس، وقد ترجم

- 8 - شحادة الخوري : الكتاب المترجم، المجلة العربية للثقافة، تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس العدد الرابع، مارس - 1983 ، ص : 74 ، 75
- 9 - ميجان الرويلي، وسعد البازغي : دليل الناقد، مرجع سابق، ص : 117، 118
- 10 - رينيه ايتيامبل : أزمة الأدب المقارن، ترجمة محمد الخزعلي، دار الكندي للنشر الأردن-1995، ص:108
- 11- جورج موانان : اللسانية والترجمة، ترجمة حسين بن زروق، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر-2000 ،
- 12 - المرجع السابق، ص : 136
- 13 - غنيمي هلال : الأدب المقارن، دار الثقافة بيروت - 1953، ص : 104
- 14 - محي الدين صابر - مقدمة - دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس - 1985، ص : 8
- 15 - نبيل علي : الثقافة العربية وعصر المعلومات، مرجع سابق، ص : 285
- 16 - - مجدي وهبة : الأدب المقارن، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان - 1991، ص : 32